أقوى من الألم

بقلم: محمد الجيار

تذكرت كم كان كل شيء يدعو الى السخرية .. كما كان يدعو الى الاعجاب وكانت ساعة الحائط تشير بكف حزينة الى منتصف الليل ، والحجرة الكبيرة ليس بها أحد سواى .. وفي مقعدي الوثير كنت أنتظر الطبيب ، وذراعي اليسرى التي كسرت منذ ساعة يصح بها الم كبير وبدأت أستعيد ماحدث .

كانت ليلة رأس السنة ، والمدينة تلمع من بعيد بنور فرح غامض ، وهواء ديسمبر يسري محملا بأنفاس ازهار ولدت مع العام الجديد .. والناس يطل من عيونهم انتظار عريض الى حياة جديدة .

وتهيأت ـ كعادتي كل عام ـ للترحيب بالعام الجديد ، الا أن طقوس الاحتفاء هذه المرة تختلف عن كل سنة ماضية .. لأنني سأستقبل العام الجديد في عيون امرأة ليست كالنساء .. فيها آخر اضواء نابل .. أنثى منجمة السحر لايبل القمر من التحديق في عينيها ، ذات حدائق ذهبية تتهدل على كتفيها في صمت متمرد ثائر ، وشاقني ان أفتح زجاجة عطر ثمينة أعددتهما لهاتين هدية في عيد رأس السنة .. عطر (التابو) ، ولكني احفلت عندما دخلت زوجتي (أمينة) الى الحجرة ، فتحاشيت عينيها ، الا انهما حاصرتا وجهي ، فرأيت فيهما تلك الأرقام الثرثارة عن ايجار المنزل ، وتكاليف المعيشة ، واستهلاك الكهرباء .. وأنا رجل موظف ، ولا أحب أن أكون موظفا صباحا .. ومساء !

ولكن زوجتي كانت هادئة دائما ، ولكنت نظراتها على عيني في عتاب

طويل ، وحاكى صوتها العالق الخال من دعوات الرحمة ..

ـ على فين .. وايه الـــوحاشة دى كلها .. ؟

ـ ولا وحاشة ولا حاجة يا امينة .. دى حتة بدلة جديدة .

ـ طيب يا سيدى مبروك .. ومبروك عليك البسة الجديدة كمان .

ـ الله يبارك فيكى يا امينـــة .. عن اذنك .. انا عندى ميعاد مع اصحابى .. وانسحبت امينة بحزن مسالم ، وأطرقت الى الارض ، وارتعشت نظراتها البطيئة تتسلقنى ، كما تتسلق ليلاية جـــدار سجن طويل ، وتطلعت الى عينى ووجهى .. كانت تطلب شيئا .. كانت اهدابها كاناملى طفل أخرس يريد ان يقول شيئا .. شيئا يؤلمه

ـ عاوزه حاجة يا امينة .

ـ فين هدية رأس السنة ؟

تلعثمت افكارى ـ هل رأت علبـــة العطر العالية التى اعددتها لسوزى ؟

ولكن امينة قطعت على حيرتى بضحكة بريئة وقالت فى بساطة الطفل :

ـ هدية السنة الجديدة .. عندى هى شىء بدون عوامة .. واحتوتنى بذراعيها احتوتنى بكل مافى ـ فطبعت قبلة باردة على شعثيها ، كتوقيع الموظفين المتسيين على دفاتر الحضور والانصراف فى وزارة الأوقاف .

***

كانت المدينة تموج بالأضواء المرحة والوجوه الباسمة ، والاشياء الجديدة ، وأنا قابع داخل سيارة (تاكسى) تنطلق بى الى سوزى ، السماء من بعيد تتشح ببعض السحب ، واضـــواء المصابيح تتراقص على أمواج النيل ، وكان سائق السيارة طويل القامة ، مائل الرأس الى الامام ، كنت احب كل شىء فى هـذه الامسية ، كنت راضيا عن البشر جميعا .. وادار السائق مفتـــاح المذياع ، فانبعثت صوت ام كلثوم حلو كالأمنية ، ورحت اردد معها ذلك المقطع « كان لك معايا .. اجمل حكاية .. »

وامتزج النغم ، بعطر الـــتابو الذى يفوح من صميم العالم كله فى هذا المساء باشعة المصـــابيح الملونة فى مهرجان المدينة الساهرة .. فاســـتدت رأسى واشعلت سيجارة ، ورحت انفث دخانها فى صدوء وسلام كاملين .

ماذا حدث ؟

العالم يتحطم .. الدنيا انفجرت ، العربة انقلبت بى بعد اصطدامها باحد اعمدة كوبرى ابى العلاء .. آلام هائلة تنشب أظافرها فى كل جســـمى .. زجاجة عطر (التابو) تحطمت وســـال العطر مع الدم الذى انبثق من صدرى كل هذا حدث فجأة .. وانا فى قمـــة سعادتى ، والقانى الليل بقسوة الى قاع العذاب الاسود ، وأحسست أن ذراعى اليسرى مقطوعة تماما ، ويسيل منهـــا الدم ، اردت الحركة .. فلم استطع ، ونفذ الى صدرى دخان اســـود كثيف كرائحة الموت ، رائحة كل الأشـــياء العزيزة التى أحببتها فى طفـــولتى ، وتحولت فى عيد رأس السنة الى رماد .

السيارة توشـــك أن تنفجر ، وأنا

عاجز عن الحركة ، ولكن الشيء الذي لن أستطيع هو أن يصب بعطل ، كان الضابط يسمعه واضحا جليا فوق الآلام ، وآه من صوت أم كلثوم وهو يتساقط على رأسي ٠٠ ودمي المتناثر في الغربة ، (كان لك معايا ٠٠٠ أجمل حكاية ٠٠ في العمر ٠٠٠) ٠٠ !!

وامتدت أذرع الناس وانقذتني من قبضة الموت ، وفي رعب داخل رحت ابحث عن دراعي ، حسستها وقعت مني ، ولكني لمست شيئا مدلى من كتفي وينتهي بأصابع مضمومة ، وساعة في المعصم لا زالت تدق ٠٠ !

لا اعرف لماذا شاهدت في هذه اللحظات العصيبة وجه روحي أمينة يطل من وراء ضبابه ، وجه روحي الطيبة الصابرة ٠٠٠ بعينيها الصافرتين وابتسامتها البطولية ، وجه روحي المتعب الشاحب دائما ٠٠ !

***

وفي بهو الاستقبال ، بإحدى المستشفيات ، تكومت بالامي على أحد المقاعد ونظرت بحزن الى ساعة معلقة في الحائط ، عقاربها تشير الى الحادية عشر مساء ، موعدي مع سوزي ، وهبت نسمة باردة من نسمات الليل حركت بعضا من عطر الزجاجة التي تحطمت في السيارة ، ورأيت نفسي في مرآة معلقة أمامي ، مرآة صدئة مشروخة ، كنت أكبر من شيء ممزق، وقد لا يرى الانسان وجوه الناس رؤية واضحة في معظم الاحيان ، وفي لحظة معينة يستكشف الوجه الحقيقي للانسان ٠٠ ولقد رأيت وجوه الناس في هذه الليلة تتسم بالأنانية والقسوة والكذب ٠٠ واطل علي فجأة وأنا منكمش في مقعدي وجه الباشمرجي ، عيناه مقرطان من متشارط الاطباء القديمة الصدئة ، وكل شيء فيه يسرق منك شيئا ، فيه عطف زائف مؤلف ، رأيته يعرج كعادته ، فصافحته بابتسامة دامعة ، همس في اذني ، أنا معاك ٠٠ ما تخافش ، فهمست اليه ، بس أنا دراعي مكسورة ومش قادر اطلع فلوس ٠٠ نظر الى بعيني صيقعي تكذبان بلا سبب ٠٠ على الدوام ٠٠ وقال ، يا أخي ايدك اليمين سليمة ٠٠ هات الجوده ٠٠ وسأنا بشيلك ٠

وأدخلت يدي اليمنى الى جيب سترتي الداخلية ، بعد ان تركت العصا المكسورة من دراعي اليسرى ، وحاهدت ان أعثر على حافظة النقود ٠٠ وفرعب ٠٠ لم يكن معي شيء ٠٠ لقد فقدت الحافظة أثناء الحادث وطلعت مرتبكا الى الباشمرجي وصرخ صوتي كالفحيح ٠٠ الفلوس راحت فابتسم ساخرا وقال ، كده ٠٠ يعني عيان من غير فلوس ٠٠

مش عاوزين ... وانتزعني من شرودي الداخلي صوت هذا الرجل الذي يبيع الابتسامة .. والكلمة الطيبة ، وتصورت عينيه تتحركان في لحمي المكسور ذراعي من جديد .

وجاء طبيب المستشفى ، وطلب من الباشتمرجي أن يخلع عني سترتي ليرى ذراعي المكسورة ، وبدأ الرجل يمزعها بعناية وبلا تمهل ورحت أتوجع طالبا اليه عدم ايلامي ، فراح يقول :

ـ ايه يعني حتة كسر في الذراع ... بازاحل استحمل .

وبدأت أصابع الطبيب تتحسس العظام المكسورة ، والباشتمرجي ينظر الى نظرات قاسية متشفية ، وهواء العام الجديد يلفح جرحي ، ثم رأيت الطبيب يشعل سيجارة ويقول : كسر مضاعف .. عمري ماشفت كسر زي ده .. بس للأسف معيش جهاز اشعة دلوقت ، وما فيش حل غير انك تبات هنا ، وبديك حقنة مسكنة . كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر مساء .. ورجوت الطبيب ان يجد سبيل ، آملا أن اهتدي الى طبيب عظام خاص .

كنت وحدي ... والألم ... والليل .. وليلة رأس السنة بأسرارها الغامضة ولكن المدينة تحولت الى لحول مزين ، كل شيء يتحرك بسرعة كأنه مسروق من شيء آخر ، وانطلقت بي سيارة تاكسي ومن زجاج السيارة كانت الأضواء الملونة الراقصة .. والاعلانات الصارخة والنساء الجميلات ذوات الثياب الضيقة كل شيء كما هو .. لم يتغير .. الا أنني مع الامي الشديدة كنت ابتسم ساخرا من كل شيء .

وكان من العسير الاهتداء الى طبيب خاص في ليلة رأس السنة ، فالألم في مثل هذه الليالي ضيف ثقيل ، الا أنني اهتديت الى عيادة لطبيب عظام بعيد بحث طويل شاق ، وارتميت على أول مقعد منتظرا طبيبي الوحيد في هذا الليل الكبير .

ـ الدكتور جاي بعد شويه .

كان صوتا مريحا صافيا نطق به رجل في حوالي الخمسين من عمره ، اشيب الرأس ، غائر الخدين ، في جبهته أثر لجرح قديم .

وكان ذراعي المكسور قد وصل بي الى قمة الألم ، ولم اعد أطيق شيئا .. الا أن صورة هذا الرجل الوديع الباسم الطيب آستثني ورثيت عن جرحي ، ورأيته يشعل لي سيجارة ويقول :

ـ شده ورزول .. معلهشي .

فقلت بصوت مبحوح : بس اشمعنا دا يحصل في رأس السنة ؟ فابتسم الرجل الباسم ونفث دخان سيجارته وقال : ما هو لازم كده علشان تقدر قيمة الحركة .. والصحة ، والكلام العادي بين الأصحاب .

فقلت : بس انا خايف ذراعي يتقطع وكان نفسي تكون تصليحتي بذراعي لسبب كبير ، حوت الجزاير مثلا .. أما ان ذراعي يروح كده في حادث عبيطة ده .. وأنا رايح أسهر مع أصدقائي

وهنا حقن قلبي ، وتذكرت سوزى ، فرجوت هذا الرجل الطيب أن يطلب لى رقم تليفونها ، وقمت استند على ذراعه حتى جلست بحوار التليفون والعرق يتصبب بجبيني ، وجاءني صوت سوزى يتمطى سكران .. وكانت هناك موسيقى راقصة صاخبة وأصوات رجال يضحكون .. وبصوت متقطع معموس بالدم قلت :

ـ سوزى .. أنا متأسف .. مقدرتش أجى .. اصل حصل لى حادث .

ـ حادث ايه ؟ انت بتكلم مين دلوقت .. ياخسارة الليلة ضاعت .

ـ ضاعت ياسوزى .. دى ليالى كتير .. بس مش أنا اللى ضيعتها . تقدرى تجيلى دلوقت .. فى عيادة الدكتور .

ـ عيادة الدكتور .. مش ممكن .. أنا آسفة جدا .. عندى بارتى وبتحمل بعيد راس السنة .. شد حيلك انت .

وللمرة الثانية اسمع صوت تكسر زجاجة العطر التى كنت سأقدمها هدية اليها ... ما ارخص مثل هذه العلاقات .. لن تعرف الحب الحقيقى الا فى ساعات الألم ..

وصرخت على صوت الرجل ـ صديقى ـ يقول : انت حضرتك مش مجوز ؟

فاجبته : مجوز من زمان ... فابتسم قائلا : يظهر ان فيه حاجه تاعباك فى الدنيا دى . طيب اسمع واح أحكى لك حكاية حتنسيك آلامك

ـ من عشرين سنة ، وبعد ما انتهت حفلة الغنا والرقص بتاعة ليلة دخلتى، جت فهيمة مراتى ، وخرجنا بلف البلد فى عربية متربعة بالورد ، كانت فهيمة حلوة ومرمرهه زى عود النعناع الأخضر .. وعلى طول سمعت الدنيا انهدت على راسى .. العربية اتحبطت ، وفهيمة الحلوة الصغيرة اتكسرت رجلهنا اليمين .. تعرف ان رجلها اتقطعت بعد كده ... ومع كده عاش حنبا طول العمر .

وبكى الرجل الطيب لأول مرة ..

فقمت احمل ذراعى المكسورة . ، ورحت اواسيه ، وقد نسيت تماما آلام ذراعى .. شعرت بتفاهتها أمام ضخية هذا الرجل ، ويهربى جمه لزوجته ، وتعلقه بالحياة ..

واخيرا .. حضر الطبيب ،واستلقيت على مقعدة العمليات ووجه الرجل الطيب الباسم الصبور يملأنى بالشجاعة والقوة ، وتعلقت بضوء المصباح .. تشبثت عيناى بحبل الضوء ، وبدأ الخدر يتسلل هادئا الى كيانى ، والأصوات تغيب ، والراحة تشمل جسدى المتعب المعذب ، وغصت فى قرار مظلم سحيق،

ومر زمن لا أعرف مداه ، ثم انقشعت ظلمة الغيب الذى طوانى فى أحشائه، وبدأت عيناى تتفتحان على الأشياء المحيطة بى ، واستكنيت من خلال الضباب الكثيف وجها رحيما مبللا بالدموع .. أول وجه يطالعنى بعد عودتى ، راية السلام البيضاء التى ترفعها الحياة لى ...

كانت ملامح هذا الوجه معروفة لى تماما ، الا انى اراها الآن أكثر وضوحا وحنوا وصدقا .. كان يبدو جديدا باهرا يطل على من أعلى الهاوية ، وشعرت بعينيه ترفعانى على محفة من النور الشفيف ، وتصعدان بى بطيئا .. بطيئا نحو القبة الشمسية الدافئة .

وابتسمت للوجه الحنون الصادق .. وهمست : أمينة .. مراتى .. فضمتنى بذراعيها ، وطبعت على فمى المثلوج قبلة لم ادق أحلى منها فى حياتى كلها .

كنت أستشعر طمأنينة بالغة ، وصفحا كاملا عن قسوة الحياة ، وحبا جديدا للناس جميعا ، حتى لهذا السائق الذى تسبب بحماقته فى كسر ذراعى ـ دون سبب ..

***

وحدنا .. كنا نعود ، ذراعها هى ذراعى ، يدها اليسرى متشابكة الأصابع مع يدى اليمنى ، وكانت هناك غمامة نور سريعا لتمسح الطريق لميلاد القمر وذراعى المكسورة داخل اطار حديدى من حيرة ممتدة لا تسمح لها بأية حركة .

وبدأنا نصعد درج المنزل فى خطوات متباعدة متألمة ، ولأول مرة استقبلنا المنزل بكل دفئه وسلامه ، واحتوانى الفراش كصدر امى ، وأطلت على عينا روحى بكل حنان الحب وروعته وصدقه وشعرت وأنا فى سجن هذه الحيرة بنوع غريب من الحرية والانطلاق النفسى .. مع روحى التى لم أر وجهها قبل الآن همست أمينة : ايه رايك ياحبيبى ... نحتفل بعيد رأس السنة هنا فى البيت ... انا رح أدور الراديو ونسمع موسيقى العالم السهران فى الليلة دى ..

رددت عليها : اراى يا أمينة عرفت باحداث .. ومن اتصل بك - قالت اتصل بى شخص اسمه (أبو سالم) - وقال انه باشترحى الدكتور : وانك تحت البنج وأعطانى العنوان فحضرت ...

***

وبعيدا عن عالم الكذب حيث يسمع الانسان صوت نفسه ، ومع آلام الذراع المكسورة ، كانت الحياة تبدأ كلماتها الحارة المخلصة فى حوار حبيب مع عينى امينة روحتى وحبيبتى .